صلى الله على محمد
وإنك لعلى خلق عظيم
معاملة النبي صلي الله عليه وسلم
مع المخطئين
العفو
رحمة
محمود سالم أبوحذيفة

وإنك لعلى خلقٍ عظيم

معاملة النبي صلى الله عليه وسلم مع المخطئين

الـمُقَدِّمَةُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ رَسُولَنَا بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفًا رَحِيمًا، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ بُعِثَ مُعَلِّمًا وَمُبَشِّرًا وَمُيَسِّرًا، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَالْكُلُّ يُخْطِئُ، تِلْكَ هِيَ الطَّبِيعَةُ الْبَشَرِيَّةُ، لَكِنَّ الْفَرْقَ يَكْمُنُ فِي يَدٍ تَمْتَدُّ لِتَبْنِيَ، وَأُخْرَى تَقْسُو لِتَهْدِمَ. وَفِي سِيرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَرَى أَعْظَمَ نَمُوذَجٍ فِي احْتِوَاءِ الزَّلَّاتِ؛ فَلَمْ يَكُنْ هَدْيُهُ التَّعْنِيفَ أَوِ التَّجْرِيحَ، بَلْ كَانَ نَبْعًا مِنَ الرِّفْقِ وَالْحِكْمَةِ، يَنْظُرُ إِلَى الْمُخْطِئِ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ الَّتِي تَقُودُهُ إِلَى الصَّوَابِ دُونَ أَنْ تَكْسِرَ نَفْسَهُ.

وَهَذِهِ إِشْرَاقَةٌ مُوجَزَةٌ، نُبْحِرُ فِيهَا مَعَ خُلُقِهِ الْعَظِيمِ فِي تَقْوِيمِ الْأَخْطَاءِ، لِنَتَعَلَّمَ كَيْفَ نَجْعَلُ مِنَ النَّصِيحَةِ بَلْسَمًا يُصْلِحُ الْقُلُوبَ وَيَحْفَظُ الْكَرَامَةَ.

الْمَوْقِفُ الْأَوَّلُ: موقف مُعَاوِيَةُ بْنُ الْحَكَمِ السُّلَمِيُّ (الَّذِي تَكَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ)

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ! فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ.

فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ — فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي (أَيْ مَا نَهَرَنِي)، وَلَا ضَرَبَنِي، وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

تَعْلِيقَاتٌ وَنَصَائِحُ تَرْبَوِيَّةٌ

مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ، نَسْتَخْلِصُ بَلْسَمًا تَرْبَوِيًّا يَتَجَلَّى فِي النَّصَائِحِ الآتِيَةِ:

مُرَاعَاةُ جَهْلِ الْمُخْطِئِ: لَمْ يَكُنْ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُتَعَمِّدًا لِلْمُخَالَفَةِ، بَلْ كَانَ جَاهِلًا بِالْحُكْمِ (أَنَّ الْكَلَامَ حُرِّمَ فِي الصَّلَاةِ). وَالْجَاهِلُ يَحْتَاجُ إِلَى التَّعْلِيمِ وَالتَّبْصِيرِ، لَا إِلَى اللَّوْمِ وَالتَّقْرِيعِ.

أَثَرُ الرِّفْقِ فِي امْتِلَاكِ الْقُلُوبِ: أَنْظُرْ إِلَى كَلِمَاتِ الصَّحَابِيِّ حِينَ قَالَ: (فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي..)، لَقَدْ مَلَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَلْبَهُ بِالرِّفْقِ. إِنَّ الْأُسْلُوبَ الْهَادِئَ يَجْعَلُ الْمُخْطِئَ مُحِبًّا لِلْمُوَجِّهِ، مُقْبِلًا عَلَى قَبُولِ النَّصِيحَةِ بِصَدْرٍ رَحْبٍ.

الْبُعْدُ عَنِ الْعُنْفِ اللَّفْظِيِّ وَالْجَسَدِيِّ: أَكَّدَ الصَّحَابِيُّ أَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَزْجُرْهُ، وَلَمْ يَضْرِبْهُ، وَلَمْ يُسْمِعْهُ مَا يَكْرَهُ. وَهَذِهِ نَصِيحَةٌ غَالِيَةٌ لِكُلِّ أَبٍ، وَمُعَلِّمٍ، وَمُرَبٍّ: أَنْ يَضْبِطُوا انْفِعَالَاتِهِمْ أَثْنَاءَ حُدُوثِ الْخَطَأ، فَالْغَضَبُ لَا يُوَلِدُ إِلَّا نُفُورًا.

التَّوْجِيهُ بِالْبَدِيلِ الصَّحِيحِ: لَمْ يَقُلْ لَهُ النَّبِيُّ "لَا تَتَكَلَّمْ" وَيَسْكُتْ، بَلْ بَيَّنَ لَهُ طَبِيعَةَ الصَّلَاةِ وَمَا يَصْلُحُ فِيهَا (إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ...). وَالنَّصِيحَةُ هُنَا: إِذَا نَهَيْتَ أَحَدًا عَنْ خَطَإٍ، فَأَرْشِدْهُ فَوْرًا إِلَى الْبَدِيلِ الصَّوَابِ.

الْمَوْقِفُ الثَّانِي: موقف (الْمُسِيءُ صَلَاتَهُ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّلَامَ، قَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ.

فَرَجَعَ الرَّجُلُ فَصَلَّى كَمَا كَانَ يُصَلِّي، ثُمَّ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ).

فَقَالَ الرَّجُلُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلِّمْنِي!

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا». [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

تَعْلِيقَاتٌ وَنَصَائِحُ تَرْبَوِيَّةٌ

تَتَجَلَّى فِي هَذَا الْمَوْقِفِ أَسَالِيبُ نَبَوِيَّةٌ بَاهِرَةٌ فِي التَّرْبِيَةِ وَالتَّوْجِيهِ، نَجْمَعُهَا فِي النَّصَائِحِ الآتِيَةِ:

تَشْوِيقُ الْمُخْطِئِ لِمَعْرِفَةِ الصَّوَابِ: لَمْ يُعْطِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِجَابَةَ لِلصَّحَابِيِّ مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ، بَلْ أَمَرَهُ بِالْإِعَادَةِ ثَلَاثًا؛ وَذَلِكَ لِيَسْتَشْعِرَ الْمُخْطِئُ تَقْصِيرَهُ، وَتَتَشَوَّقَ نَفْسُهُ تَمَامًا لِمَعْرِفَةِ الصَّوَابِ، فَتَثْبُتَ الْمَعْلُومَةُ فِي ذِهْنِهِ وَلَا يَنْسَاهَا أَبَدًا.

الْهُدُوءُ وَعَدَمُ الِاسْتِعْجَالِ فِي الْإِنْكَارِ: صَبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الرَّجُلِ وَهُوَ يُعِيدُ الصَّلَاةَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ بِنَفْسِ الْخَطَإِ، وَلَمْ يَنْفَجِرْ فِيهِ غَضَبًا أَوْ يَصِفْهُ بِالْجَهْلِ. وَالنَّصِيحَةُ هُنَا لِلْمُرَبِّي: امْلِكْ نَفْسَكَ وَكُنْ صَبُورًا، فَإِصْلَاحُ الْعَادَاتِ السَّيِّئَةِ يَحْتَاجُ إِلَى طُولِ نَفَسٍ.

حِفْظُ كَرَامَةِ الْمُخْطِئِ: رَغْمَ أَنَّ الرَّجُلَ أَخْطَأَ فِي رُكْنٍ عَظِيمٍ كَالصَّلَاةِ، إِلَّا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ بِلُطْفٍ، وَتَعَامَلَ مَعَهُ بِأَدَبٍ جَمٍّ. الْخَطَأُ فِي الْفِعْلِ لَا يَعْنِي إِهَانَةَ الذَّاتِ، فَاحْذَرْ أَنْ تَجْرَحَ كَرَامَةَ مَنْ تَنْصَحُهُ.

تَفْكِيكُ الْخَطَأِ وَتَبْسِيطُ الشَّرْحِ: لَمَّا طَلَبَ الرَّجُلُ التَّعْلِيمَ قَائِلًا: (فَعَلِّمْنِي)، بَدَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْرَحُ لَهُ الصَّلَاةَ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ بِأُسْلُوبٍ مُرَتَّبٍ وَمُبَسَّطٍ (ثُمَّ ارْكَعْ.. ثُمَّ ارْفَعْ.. ثُمَّ اسْجُدْ). التَّدَرُّجُ وَالْوُضُوحُ فِي النَّصِيحَةِ هُمَا سِرُّ الْقَبُولِ.

تَقْدِيرُ الِاعْتِرَافِ بِالْخَطَأِ: لَمَّا اعْتَرَفَ الصَّحَابِيُّ بِعَجْزِهِ عَنِ الْإِحْسَانِ بِنَفْسِهِ، قَابَلَهُ النَّبِيُّ بِالِاحْتِوَاءِ التَّامِّ. إِذَا جَاءَكَ الْمُخْطِئُ مُعْتَرِفًا بِمَا صَنَعَ طَالِبًا لِلْإِصْلَاحِ، فَافْتَحْ لَهُ ذِرَاعَيْكَ وَلَا تُذَكِّرْهُ بِمَاضِيهِ.

الْمَوْقِفُ الثَّالِثُ: الشَّابُّ الَّذِي اسْتَأْذَنَ فِي الزِّنَا

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : «إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا! فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، وَقَالُوا: مَهْ مَهْ!

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ.

قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ! قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ. قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ! قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ.

قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ! قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ. قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ! قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ.

قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ! قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ. قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ. فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ». [رَوَاهُ أَحْمَدُ].

تَعْلِيقَاتٌ وَنَصَائِحُ تَرْبَوِيَّةٌ

يُعْتَبَرُ هَذَا الْمَوْقِفُ مَدْرَسَةً مُتَكَامِلَةً فِي عِلْمِ النَّفْسِ التَّرْبَوِيِّ، وَنَسْتَلْهِمُ مِنْهُ النَّصَائِحَ الآتِيَةَ:

تَقْرِيبُ الْمُخْطِئِ وَاحْتِوَاؤُهُ جَسَدِيًّا وَنَفْسِيًّا: حِينَ زَجَرَ النَّاسُ الشَّابَّ، خَالَفَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُ: (ادْنُهْ)، ثُمَّ أَجْلَسَهُ بِجِوَارِهِ، وَفِي نِهَايَةِ الْحِوَارِ وَضَعَ يَدَهُ الشَّرِيفَةَ عَلَيْهِ. هَذَا الْقُرْبُ الْجَسَدِيُّ يَمْتَصُّ التَّوَتُّرَ وَالْخَوْفَ، وَيَجْعَلُ الْمُخْطِئَ مُهَيَّأً لِقَبُولِ التَّوْجِيهِ.

الْإِقْنَاعُ الْعَقْلِيُّ الْهَادِئُ بَدِيلًا عَنِ الزَّجْرِ: لَمْ يَبْدَأِ النَّبِيُّ بِالْوَعِيدِ أَوْ بِذِكْرِ الْعُقُوبَاتِ الشَّدِيدَةِ، بَلْ خَاطَبَ عَقْلَ الشَّابِّ وَمُرُوءَتَهُ مِنْ خِلَالِ رَوَابِطِهِ الْأُسَرِيَّةِ. النَّصِيحَةُ هُنَا: خَاطِبْ مَنْ تَنْصَحُهُ بِالْمَنْطِقِ الَّذِي يَفْهَمُهُ، وَاجْعَلْهُ يَصِلُ إِلَى قَنَاعَةِ الصَّوَابِ بِنَفْسِهِ.

احْتِرَامُ الصَّرَاحَةِ وَعَدَمُ كَبْتِ الْمَشَاعِرِ: جَاءَ الشَّابُّ بِرَغْبَةٍ جَامِحَةٍ لَكِنَّهُ كَانَ صَادِقًا مُسْتَأْذِنًا، فَلَمْ يُعَاقِبْهُ النَّبِيُّ عَلَى صَرَاحَتِهِ. وَهَذَا دَرْسٌ لِلْآبَاءِ وَالْمُرَبِّينَ: إِذَا بَاحَ لَكَ ابْنُكَ أَوْ طَالِبُكَ بِأَمْرٍ صَادِمٍ، فَلَا تَفْزَعْ وَلَا تَقْسُ عَلَيْهِ، حَتَّى لَا يَلْجَأَ إِلَى الْخِدَاعِ وَمُمَارَسَةِ الْخَطَإِ فِي الْخَفَاءِ.

التَّرْكِيزُ عَلَى الدُّعَاءِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ وَالْحُضُورِ: خَتَمَ النَّبِيُّ الْمَوْقِفَ بِدَعَوَاتٍ جَامِعَةٍ (اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ...). الدُّعَاءُ لِلْمُخْطِئِ أَمَامَهُ يَزِيدُ مِنَ الرَّابِطَةِ الْقَلْبِيَّةِ بَيْنَكُمَا، وَيُشْعِرُهُ بِأَنَّكَ حَرِيصٌ عَلَى نَجَاتِهِ وَلَسْتَ مُتَرَبِّصًا بِهِ.

عِلَاجُ جُذُورِ الْمُشْكِلَةِ لَا الْمَظَاهِرِ فَقَطْ : الدُّعَاءُ بِطَهَارَةِ الْقَلْبِ وَتَحْصِينِ الْفَرْجِ كَانَ عِلَاجًا لِمَصْدَرِ الشَّهْوَةِ وَالِانْدِفَاعِ فِيهِ، فَتَحَوَّلَ الشَّابُّ مِنَ الرَّغْبَةِ فِي الذَّنْبِ إِلَى بُغْضِه تَمَاماً

الْمَوْقِفُ الرَّابِعُ: موقف الْأَعْرَابِيُّ الَّذِي بَالَ فِي الْمَسْجِدِ

وفيه أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي المَسْجِدِ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ ليَقَعُوا بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعُوهُ، وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ» (رواه البخاري)

وفي رواية مسلم عن أنس قال : قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهْ مَهْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ» فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ

وفي مسند أبي يعلى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقْطَعُوا عَلَى الرَّجُلِ بَوْلَهُ». ثُمَّ دَعَا بِهِ فَقَالَ: «أَلَسْتَ بِمُسْلِمٍ؟» قَالَ: بَلَى. قَالَ: «فَمَا حَمَلَكَ أَنْ بُلْتَ فِي الْمَسْجِدِ؟» فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا ظَنَنْتُ إِلَّا أَنَّهُ صَعِيدٌ مِنَ الصُّعُدَاتِ فَبُلْتُ فِيهِ. فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَنُوبٍ مِنْ مَاءٍ فَصُبَّ عَلَى بَوْلِهِ "

تَعْلِيقَاتٌ وَنَصَائِحُ تَرْبَوِيَّةٌ

مِنْ هَذَيْنِ السِّيَاقَيْنِ نَخْرُجُ بِدُرُوسٍ تَرْبَوِيَّةٍ وَفِقْهِيَّةٍ عَمِيقَةٍ جِدًّا:

الْبَحْثُ عَنِ الدَّافِعِ وَالسَّبَبِ قَبْلَ الْعِقَابِ: يَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي سُؤَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ...). لَمْ يَحْكُمْ عَلَيْهِ بِالْفَسَادِ، بَلْ اسْتَفْسَرَ عَنْ عِلَّةِ فِعْلِهِ. وَالنَّصِيحَةُ هُنَا: قَبْلَ أَنْ تَحْكُمَ عَلَى سُلُوكِ الطِّفْلِ أَوْ الْمُخْطِئِ، اسْأَلْهُ بِرِفْقٍ: "مَا الَّذِي جَعَلَكَ تَفْعَلُ هَذَا؟"، فَقَدْ يَكُونُ مُتَأَوِّلًا أَوْ جَاهِلًا.

عُذْرُ أَهْلِ الْجَفَاءِ وَالْبَادِيَةِ بِطَبِيعَتِهِمْ: جَاءَ جَوَابُ الْأَعْرَابِيِّ صَادِقًا: (ظَنَنْتُهُ وَالصَّعِدَاتِ وَاحِدًا)، فَهُوَ يَعِيشُ فِي الْبَرِّيَّةِ حَيْثُ كُلُّ الْأَرْضِ مَفْتُوحَةٌ لَهُ، وَلَمْ يُدْرِكْ خُصُوصِيَّةَ الْمَسْجِدِ. وَالْمُرَبِّي النَّاجِحُ هُوَ مَنْ يُرَاعِي الْبِيئَةَ الَّتِي نَشَأَ فِيهَا الْمُخْطِئُ قَبْلَ أَنْ يُحَاسِبَهُ بِمَعَايِيرِهِ هُوَ.

دَفْعُ أَعْظَمِ الْمَفْسَدَتَيْنِ بِاحْتِمَالِ أَدْنَاهُمَا: قَطْعُ الْبَوْلِ عَلَى الْأَعْرَابِيِّ كَانَ سَيَتَسَبَّبُ فِي مَفْسَدَتَيْنِ أَكْبَرَ: أُولَاهُمَا طِبِّيَّةٌ وَهِيَ إِضْرَارُ الرَّجُلِ فِي جَسَدِهِ، وَثَانِيَتُهُمَا بِيئِيَّةٌ وَهِيَ أَنَّهُ لَوْ قَامَ مَذْعُورًا لَتَلَوَّثَتْ ثِيَابُهُ وَتَفَرَّقَ الْبَوْلُ فِي أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْمَسْجِدِ. فَكَانَ تَرْكُهُ يُتِمُّ بَوْلَهُ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ هُوَ الْحِكْمَةُ بِعَيْنِهَا.

التَّيْسِيرُ لَا التَّعْسِيرُ: وَجَّهَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ بِقَوْلِهِ: (إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ). النَّصِيحَةُ لِكُلِّ دَاعِيَةٍ: اجْعَلِ الدِّينَ مُحَبَّبًا إِلَى النَّاسِ، وَلَا تَجْعَلْ مِنْ أَخْطَائِهِمْ حَاجِزًا يَطْرُدُهُمْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَبُيُوتِهِ.

سُرْعَةُ مُعَالَجَةِ الْأَثَرِ دُونَ تَأْجِيلٍ: فَوْرَ انْتِهَاءِ الْأَعْرَابِيِّ، أَمَرَ النَّبِيُّ بِتَطْهِيرِ الْمَكَانِ بِالْمَاءِ. تَعْلِيمٌ عَمَلِيٌّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَخْطَاءَ تُعَالَجُ آثَارُهَا مَادِّيًّا وَمَعْنَوِيًّا بِسُرْعَةٍ وَهُدُوءٍ، دُونَ إِثَارَةِ جَلَبَةٍ طَوِيلَةٍ.

الْخَاتِمَةُ

وَفِي خِتَامِ هَذِهِ الْجَوْلَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي رِحَابِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُطَهَّرَةِ، نَجِدُ أَنْفُسَنَا أَمَامَ حَقِيقَةٍ كُبْرَى؛ وَهِيَ أَنَّ تَقْوِيمَ الْأَخْطَاءِ فِي مَدْرَسَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ قَوَانِينَ تُطَبَّقُ، بَلْ كَانَ رَحْمَةً تَتَنَزَّلُ، وَشَفَقَةً تَحْتَوِي، وَحِكْمَةً تَبْنِي.

لَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ تَحَوَّلَ الْجَهْلُ إِلَى عِلْمٍ، وَالِانْدِفَاعُ إِلَى عِفَّةٍ، وَالْجَفَاءُ إِلَى حُبٍّ وَوَلَاءٍ؛ كُلُّ ذَلِكَ بِفَضْلِ الْقَلْبِ الْكَبِيرِ الَّذِي اتَّسَعَ لِلْبَشَرِيَّةِ بِأَخْطَائِهَا وَضَعْفِهَا، فَمَا كَسَرَ نَفْسًا، وَلَا جَرَحَ كَرَامَةً، وَلَا طَرَدَ تَائِبًا.

إِنَّ النَّصِيحَةَ الْغَالِيَةَ الَّتِي نَخْرُجُ بِهَا لِكُلِّ أَبٍ، وَمُعَلِّمٍ، وَمُرَبٍّ، وَدَاعِيَةٍ: أَنْ يَتَمَثَّلُوا هَذَا الْهَدْيَ الشَّرِيفَ؛ فَإِنَّ الْخَطَأَ قَدْ يَتَكَرَّرُ، لَكِنَّ الْأُسْلُوبَ الرَّحِيمَ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَضْمَنُ الصَّلَاحَ وَالْقَبُولَ.

نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَلِيَّ الْقَدِيرَ أَنْ يُجَمِّلَنَا بِأَخْلَاقِ نَبِيِّنَا، وَأَنْ يَجْعَلَنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ، مُيَسِّرِينَ لَا مُعَسِّرِينَ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

جمع وترتيب / الشيخ محمود سالم أبو حذيفة